العرب
الجمعة 2019/11/29
السنة 42 العدد 11543

# النداء اليائس: «شيعة شيعة شيعة»!

محمد قواص
صحافي وكاتب
سياسي لبناني

يصرخ مناصرو حزب الله وحركة أمل في تجمعاتهم ولرفد أعمالهم المناهضة للحراك الشعبي المعارض في لبنان "شيعة شيعة شيعة". في تلك الهوية الصادحة توقٌ يائس إلى استدراج هويات أخرى للنزال.

ربما في البال هويةٌ سنّية تعيد النفخ في فتنة راجت في العراق مستلهمة تلك الشيعية السياسية التي ما برحت تلوّح وتبشر بها "الثورة" في إيران منذ مؤسسها الراحل روح الله الخميني.

ربما في البال أيضا توقٌ مستحيل لاستدراج فتنة إسلامية مسيحية على خطوط تماس مندثرة جرى التهليل لها طوال مواسم الحرب الأهلية في لبنان.

**«شيعة شيعة شيعة» شعار ظاهرهُ استفزازٌ للطوائف والمذاهب الأخرى وباطنُه استجداء للشيعة أنفسهم لئلا لا يغادروا شيعيتهم السياسية بصفتها الهوية الوحيدة اللائقة لهم**

بيد أن محاولة "استرجاع" الشيعة اللبنانيين واستعادتهم إلى شيعيتهم من خلال الردح "شيعة شيعة شيعة"، تكشف الهلع من تنامي نزوع لدى عامة الطائفة للانتماء إلى هوية لبنانية تتأكد متانتها منذ اندلاع انتفاضة هذه الأيام في 17 أكتوبر الماضي.

يسلّط شعار "شيعة شيعة شيعة" الضوء على ثقافة سياسية جرى تعليمها وتعميمها، تقسّم العالم والمجتمعات بشكل عمودي بين شيعة وغير شيعة.

باتت الشيعية السياسية تحت ظلال الولي الفقيه في طهران عقيدة أممية عابرة للحدود متجاوزة للجغرافيا. صار التشيّع قضية لا تفوقها أي قضية. جرى أن سمعت هذا الكلام من العراق بعد أيام على سقوط بغداد وتهاوي نظام الرئيس الراحل صدام حسين. وجرى أن ورشة يومية نشطت في لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982، عملت على تأطير الشيعة في البلد، دون غيرهم، داخل الأجسام المتناسلة محليا من عقيدة تنتفخ في إيران.

رُفعت جدران بين شيعة لبنان واللاشيعة في لبنان. كان الشيعة في لبنان جزءا من تيارات سياسية وعقائدية، يمينية ويسارية، قومية وأممية، تشغل الطائفة كما تشغل الطوائف الأخرى.

أباد الاجتياح الإسرائيلي موارد تلك التيارات فشتتها وأقصاها وهزمها كنتيجة آلية لهزيمة منظمة التحرير الفلسطينية. وجرى أن تم سوْق الشيعية السياسية الصاعدة لتكون نقيضا مشرّفا ضد الاحتلال الإسرائيلي في الجنوب.

على هذه القاعدة تنامت شرعية حركة أمل بزعامة نبيه بري، وعلى نفس القاعدة تعملق حزب الله محتكرا المقاومة، بعد أن حرمها من لبنانيتها وتعدديتها الوطنية العابرة للطوائف مقصيا بالدم والترهيب "جبهة المقاومة اللبنانية" (جمول)، ثم تعملق أكثر محتكرا شيعيته وحدها لهذه المقاومة، بعد أن أقصى بالدم والنار حركة أمل داخل أتون ما أطلق عليه "حرب الأخوة" في الثمانينات.

كان واضحا أن "المقاومة" باتت، ويجب أن تكون، ذراع نظامي طهران ودمشق، ثم نظام طهران دون منازع أولا وأخيرا.

على هذا بات عنوان الشيعة في لبنان في طهران لا في بيروت. وعلى هذا فإن ضعف الشيعة في لبنان أو قوتهم يُستمد مما يتقرر في إيران وفق خرائط شاملة لكل الشيعة في كل المنطقة. لم يعد شيعة البلد، كما شيعة العراق أو الخليج أو أفغانستان...إلخ، إلا تفصيلا داخل خارطة الشيعة التي يتولى الولي الفقيه التحكم بمسارها ومصيرها في العالم.

كانت عقيدة النازية بزعامة أدولف هتلر تعتبر أن لا جغرافيا للأمة الألمانية، فالأمة موجودة في أي مكان يتواجد بها الألمان. جرى التسويق لذلك بمهارة للتبشير بامتداد جيوش الفوهرر نحو بولونيا أو النمسا أو هنغاريا... إلخ. لم يصل هتلر إلى حد التبشير بالعنصر الجرماني، ذلك أن عقائده تأسست على تفوق الجنس الآري الذي لا يمكن تعميمه على الأجناس الوضيعة الأخرى. بيد أن أمر الثورة الإيرانية ذهب أبعد من ذلك.

لا يعتمد النظام في إيران على مشروع إمبراطوري مصدّر للقيم الإنسانية الكبرى (فرنسا وشرعية حقوق الإنسان مثالا). لم يدّع الخميني أو خليفته ذلك. جرى تخصيب الشيعية عند الشيعة كما خصبت إيران لاحقا اليورانيوم لتطوير برنامجها النووي. ولأن صناعة الولي الفقيه تستخدم الشيعة كمواد أولية، جرى تصنيع الشيعة في بلدان لا تعرف الشيعية وليست من تقاليدها ومذاهبها. جرى إطلاق حملات تشيّع في مصر كما في المغرب وتونس والجزائر والسودان مثلا، قبل أن تضع سلطات تلك البلدان حدا للصناعة الإيرانية الخبيثة.

يعلن شيعة لبنان وشيعة العراق أنهم لم يعودوا شيعة طهران. الأمر يهدم أربعة عقود من البناء الفسيفسائي لهوية الشيعة في المنطقة. حدث قبل عقود أن شكك الرئيس المصري الأسبق حسني مبارك بولاء الشيعة لبلدانهم. وحدث أيضا أن تحدث العاهل الأردني الملك عبدالله الثاني عن هلال شيعي في المنطقة تقوده طهران. وحدث أن بنت المنظومة الغربية برمتها علاقاتها مع جمهورية الولي الفقيه بصفتها العنوان الوحيد للشيعة في كل المنطقة، في باكستان وأفغانستان كما في البحرين والكويت ولبنان. وحدث أن عراقية الشيعة في العراق ولبنانيتهم المتصاعدة في لبنان تهز أركان نظام يهز أركانه الشيعة في إيران نفسها.

يكتشف حزب الله أنه لا يستطيع أن يجابه بـ"شيعته" ثورة تخترق المنظومة الطائفية في لبنان. يهاجم حراكهم في صور وبعلبك ومدن شيعية أخرى. يفقد الحزب أدواته التقليدية التي على أساسها كبر فوق طائفته، شأنه في ذلك شأن أحزاب سياسية أخرى لطالما كبرت فوق طوائفها. يسعى الحزب يائسا لإنعاش مذهبية تحتضر. وفيما قد لا يصدّق اللبنانيون ظواهر اللبننة المضادة للطائفية فيصلون من أجل انتصار الأولى واندحار الثانية، لا يريد حزب الله أن يتيح للشيعة الإيمان بهذا الاحتمال فيعمل على حمل الحطب إلى نار أي فتنة يسهل إشعالها.

"شيعة شيعة شيعة" شعار ظاهرهُ استفزازٌ للطوائف والمذاهب الأخرى وباطنُه استجداء للشيعة أنفسهم لكي لا يغادروا شيعيتهم السياسية بصفتها الهوية الوحيدة اللائقة لهم.

يذهب الصادحون إلى تمني "7 أيار" جديد. تأتي الدعوة من المناصرين بصفتها استدعاء لسلاح القوة والخوف، يُراد منها أيضا إظهار تعفف حزب الله عن الذهاب إلى علاجات تقادمت. فمشكلة الحزب أنه ذهب في تلك "الغزوة" في عام 2008 متسلحا بسيرته المقاومة في العالمين العربي والإسلامي، ومتمترسا وراء إجماع الشيعة، فيما أنه هذه الأيام فقد بيئته الكبرى وفقد بيئته اللبنانية ويراقب بألم انحسار بيئته المذهبية يوما بعد آخر.

قهر شيعة العراق في الشارع نظام شيعة إيران في بغداد حتى لو لم يسقط حتى الآن. تبدو صرخات "شيعة شيعة شيعة" إيذانا لبنانيا باندثار عهد واختفاء مواسم، بحيث تتصحر السياسة في خطاب حزب الله وتجف ينابيع "أشرف الناس" ولا يبقى منها إلا صراخ يائس يكرر حتى زوال الصوت "شيعة شيعة شيعة".

الشيعة في لبنان سابقون على ولادة حزب الله، وهم شيعة قبل أن تصبح إيران نفسها شيعية، وهم شيعة لبنان حين تندثر أوهام التشيّع لصالح طهران.

# ما لم يفهمه جنرالات الجزائر

حميد زناز
كاتب جزائري

لقد صمدت ثورة الابتسامة عشرة أشهر ونيف وحافظت على زخمها وسلميتها، وكأنها في يومها الأول، بل ازدادت قوة واتساعا وإصرارا على تحقيق أهدافها مهما كان الثمن وطال الزمن. وتجاوزت بنجاح كل مناورات مجموعة الجنرالات الحاكمة الراغبة في تجديد النظام ومواصلة حماية نفسها واستغلال مقدرات الشعب الجزائري إلى آخر دولار.

لقد توحّد الجزائريون جراء تجندهم الطويل في الشارع. وتحصّنت ثورتهم بوعي جماعي مقاوم جديد، أصبح يشكل مانعا قويا أمام محاولات بقايا النظام التفريقية والتضليلية. وفشل قائد الأركان وجماعته في فرض إرادتهم رغم تهديدهم المتكرر من داخل الثكنة للمحتجين السلميين وتخوينهم لكل المعارضين وكذلك استخدام القمع والاعتقالات العشوائية اليومية، من زرع الخوف في قلوب المتظاهرين الرافضين لسياسة الأمر الواقع.

لم يفشل قائد الأركان في إيقاف المظاهرات والاحتجاجات فحسب، بل عجز عن فهم التحول الجذري في نظرة الجزائريين إلى النظام القائم، بعد أن عقدت غالبيتهم العزم على المضي في مسيرتهم التحررية حتى إرساء النظام الديمقراطي، الذي حرمهم منه حكم العسكر، الذي كان القايد صالح جزءا منه منذ استقلال البلاد سنة 1962.

يبدو التطور النوعي الحاصل على مستوى الرأي العام الجزائري متصادما مع رؤية القيادة العسكرية، حاكم الجزائر الفعلي اليوم، التي لم تتمكن رغم مرور أكثر من 10 أشهر من ترويض الهبة المواطنية ولم تستوعب أنه لم يعد ممكنا إطلاقا العودة إلى ما قبل 22 فبراير.

القيادة العسكرية الآن أمام ورطة كبيرة لأنها تعودت دائما على استعمال القوة المادية والمعنوية ضد أفراد أو مجموعات صغيرة مناوئة وفي جغرافيا ضيقة، ولم تتعود على مواجهة مثل هذا الاحتجاج الوطني الواسع الرافض لهيمنتها.

وما الانتخابات الرئاسية التي يحاول الجنرالات فرضها ضد إرادة أغلبية الشعب الجزائري، سوى بحث عن غطاء شرعي متمثل في رئيس جمهورية دمية، يمكن تحت سلطته المدنية، القضاء عسكريا على الانتفاضة الشعبية باتخاذ إجراءات أمنية صارمة في حال انتخاب ذلك الرئيس في مسرحية يوم 12 ديسمبر المقبل المستهجنة من قبل الأغلبية الساحقة.

لكن ما يغيب عن قائد الأركان ومن والاه، أن المسألة هي قضية تحرر وتقرير مصير وأن القطيعة قد تمت نهائيا بين النظام المتهالك الميت الذي يحاولون إنعاشه وبين المجتمع الجزائري الحي، لأن هؤلاء المتسلطين لم يدركوا بسبب عنجهيتهم وتصوراتهم البالية، حجم التغيّر الحاصل في ذهنية الجزائريين ولحظة الوعي العميقة التي يعيشونها.

"الجنرالات في المزبلة والجزائر ستحصل على استقلالها" هكذا تهتف الملايين من الحناجر كل جمعة وثلاثاء وفي الليل أحيانا.

**لا مخرج للأزمة، سوى البحث مع القوى الحية عن طريق سياسي يضمن الانتقال السلمي إلى جزائر جديدة تكون فيها الكلمة للإرادة الشعبية فقط**

جموع المتظاهرين في الجزائر العاصمة وتيزي وزو وبجاية تيقنت تماما أنه لا أحد يستطيع أن يرغم الجزائريين الصامدين على العودة إلى بيوتهم وكبت طموحهم المشروع في إقامة دولة القانون المدنية. لذلك فلا مخرج للأزمة، إذا كانت المؤسسة العسكرية تبحث حقيقة عن مخرج عقلاني، سوى البحث مع القوى الحية عن طريق سياسي آخر يضمن الانتقال السلمي السلس إلى جزائر جديدة بعيدة عن كل وصاية وعن أي قلائل أو عنف، تكون فيها الكلمة للإرادة الشعبية فقط.

فهل تدرك المجموعة الحاكمة مدى الخطر الذي سيحوم على البلد، إذا ما واصلت تمسكها بخيار مناقض جملة وتفصيلا لإرادة الشعب وتطلعاته؟ وهل تلجأ إلى إعمال العقل والتفكير في مصلحة الجزائر قبل كل شيء أم تتمادى في انتهاج طريق عبثيتها وتدخل الجزائر في حرب أهلية ثانية؟

# عراق تشرين بين أميركا وإيران

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

من الثوابت المسلم بها أن أميركا وإيران لا تستطيعان تحمل كلفة الخروج من العراق. فخروج النظام الإيراني منه يعني خروجه من سوريا ولبنان واليمن، بالتوالي، وهو ما يشعل حربا أهلية إيرانية داخلية قد تسقطه، لا محالة. لذلك فهو قد يفعل بالثورة التشرينية العراقية ما فعله بثورة جياعه مؤخرا، إذا وجد أن هذه الثورة توشك أن تُسقط نظام وكلائه، وتقطع حبل سرته المغذي، الذي أعانه على ويلاته الاقتصادية في الزمن الماضي الطويل.

وإذ كان يحاول، منذ الأول من تشرين الثاني وحتى الآن، تجنب إثارة الرأي العام الدولي، قدر المستطاع، والمراهنة على أن يتمكن جواسيسه وميليشياته من شرذمة الثورة، رويدا رويدا، بالاعتقالات والاغتيالات والاندساس بين الثوار، وبحرفهم عن سلميتهم المحرجة التي لا تسره، فإنه قد يفقد صبره في النهاية ويستخدم القوة غير عابئ باحتجاجات المجتمع الدولي، كعهده بذلك منذ أربعين عاما.

أما الولايات المتحدة فهي الأخرى، لن تترك العراق لا لإيران ولا لغيرها، مهما كان، ومهما سوف يكون، لإبقائه ضمن مناطق نفوذها، سواء بالملاطفة أو بالمشاكسة، أو بقوة المال والسلاح والمخابرات، وذلك لأن الموقع الجيوسياسي العراقي ضروري وملح لمصالحها في المنطقة، من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنها لا تستطيع أن تشطب من تاريخها السياسي والعسكري والاقتصادي ما أنفقته، من أجل امتلاكه، من دماء ومليارات وجهود مضنية، ليس بغزوها عام 2003 فقط، بل قبل ذلك بسنين.

فهي كانت موجودة فيه، ظاهرة أو متخفية، منذ منتصف الخمسينات من القرن الماضي. ثم اتخذ وجودها صيغته النهائية الثابتة في أواسط الستينات، حين أقدمت على ملء الفراغ الذي تركته بريطانيا العظمى بانسحابها من المنطقة.

أما وجودها العملي الفاعل في العراق فقد بدأ بشهادة علي صالح السعدي، أمين سر القطر لحزب البعث، بعد انقلاب عام 1963، والذي صرح بأننا "جئنا بقطار أميركي".

ثم بسبب غزو صدام للكويت، والمشاركة الإيرانية الفاعلة في تسهيل مهمة القوات الأميركية في خوض حرب الخليج الثانية 1991، قررت "أميركا جورج بوش الأب" أن تحتضن المعارضة العراقية السابقة، حتى وهي تعلم بأنها، ظاهريا معارضة عراقية، وإيرانية خمينية سورية أسدية، في حقيقتها.

ثم زادت إدارة بيل كلنتون من إمساكها بـ"خوانيق" تلك المعارضة، وضاعفت من تنسيقها وتفاهمها مع النظام الإيراني بخصوص رسم صيغة عراق ما بعد صدام حسين.

ثم عادت أميركا جورج بوش الابن فأنهت اللعبة، وغزت العراق، وسلمت السلطة لوكلائها، مناصفة مع وكلاء الولي الفقيه.

وعلى هذا ينبغي لثوار تشرين أن يُحسنوا تقدير المواقف الحقيقية على الأرض، سياسيا واقتصاديا، وأمنيا وعسكريا أيضا، وأن يدركوا أن خسارة أميركا للعراق تعني الكثير لهيبتها في العالم، وفي نظر مواطنها في الداخل، باعتبار أن خسارة العراق، بعد كل تلك التضحيات الباهظة، لا بد أن تحرج القدرات الانتخابية لكلا الحزبين الكبيرين.

كما تعني أيضا أن قوى دولية أخرى سوف تقفز وتأخذ مكانها في الوصاية والابتزاز والاستغلال.

ولعل أهم دوافع قلق واشنطن هو التواجد الروسي المحتمل في العراق، في ظل التنافس على النفوذ بين القوتين، خصوصا في منطقة الشرق الأوسط، والخليج العربي تحديدا.

وهنا نصل إلى سؤال يتكرر كثيرا حول سر البرود الأميركي المستغرَب في موقف إدارة ترامب من ثورة شباب تشرين العراقيين، ومن الانتفاضة التي عمت المدن الإيرانية، واكتفائها بالدعم الكلامي العابر غير الجدي لمطالب الشعبين العراقي والإيراني.

وللرد على ذلك، نقول إن الذي يعيش في الولايات المتحدة يعلم، أكثر من الذي يعيش خارجها، بأن المزاج العام للشعب الأميركي لم يعد حربيا كما كان. فهو في كل يوم يزداد قناعة بضرورة أن تتوقف حكومته عن خوض حروب جديدة في أي منطقة من العالم، إلا إذا تأكد أن هناك تهديدا جديا وحقيقيا للمصالح القومية الأميركية العليا.

وعلى هذا نجد ترامب، في العراق وإيران، يتحاشى الصدام الحقيقي مع النظام الإيراني، ومع ميليشياته، ويكتفي بسلاح العقوبات الذي بدا أنه يفعل فعله في إرباك النظام وإضعافه وإغراقه بمعارك متقطعة مع شعبه ومع طائفته في العراق ولبنان، وقد تعجل، بالتزامن مع مشكلاته الاقتصادية والسياسية والأمنية الداخلية، في سقوطه في النهاية.

وإذا علمنا بأن القوة الحقيقية الفاعلة في أميركا هي للمصارف العظمى والشركات المئة الكبرى ولشبكات الإذاعة والتلفزيون والصحافة ومواقع التواصل الاجتماعي ولوبيات الحكومات الخارجية الغنية والقوية والكثير من الشركات الأجنبية كذلك، فسوف ندرك أن أميركا، بكل قوتها العسكرية والاقتصادية والسياسية، وليس برئيسها وحده، قد اختارت ملاعبة الفأر الإيراني، وجرّه إلى ساحة حرب منهكة ومهلكة ولكن ببرود، وعلى نار هادئة، وبالنفس الطويل.